افاعي الفردوس

بين الشهوة الصاخبة والعفّة المتنائية

بقلم جان عزيز

الياس ابو شبكه شاعر لبناني مجدّد ، اسرى — فيمن اسرى من شعرائنا غبّ الحرب — الى ينابيع الحياة في الغرب . وذلك بعد ان كادت مواصلة المومياءات العربية ، من مهىً وظبياتٍ ومعلقات ، تستنزف سوزًا شاحبًا ، في اعراق هذا الشعب ، من نسغ الخلق والابتكار . وان « افاعيه » التي نحاول درسها اليوم ، لمن ثمار تشرّقنا بشموس الغرب ، او هي ، اذا شئت ، من جنى ما هيّأه لنا الغرب — نحن اللبنانيين ابناء المتوسّط — من لقاء ذاتنا وعناق أنيتنا الحقّ .

* * *

اول ما يسترعي الانتباه في « افاعي الفردوس »[1] هدير شهوةٍ صاخبة ملحاح ، يتفجّر ، هنا وهناك ، في معظم المجموعة ، اما عربدةً حمراء ، واما خزياً قذرًا . قال :

شبق الليث ليلةً فتنزّى ، ثائرًا في عرينه المهجورِ ،
تقطر الشهـوة المسعّرة الشوهاء منه ، كأنه في سعيرِ ،
يضرب الارض بالبراثن ، غضبانَ ، فيصدي القنوط في الديجورِ .

وقال :

فابصرت اطباقًا تمدّها يدٌ اصابع من عظمٍ ، وقصبها يدُ ؛
صباغ يذوب الخزي منه ، ملاصقًا ، اذا علقت فيه النواظر تجمدُ .
وشاهدت في الاطباق مقعدة الورى ، تمور بها الديدان ، سكرى ، تعربدُ ؛
مقاذر تمشي في الحياة طروبةً تغني ، واصداء القبور تردّدُ .

---

[1] الياس ابو شبكه : افاعي الفردوس – شعر – ٩٦ ص . كبيرة ، منشورات دار « المكشوف » ، بيروت ، ١٩٣٨ .

هي « حممٌ تتشظى » او هي « تنهدات مستنقع »، وحصاد امثالها ميسورٌ في « الافاعي ». ولكنها ــ وهــذا دليلي على نقص في الذوق الكسبي ــ مغمورة بابياتٍ اقل ما يُقال فيها انها بقيّات ممثّة من عهد « القيثارة » غير السعيد :

— والبصير البصير يخدع بالحسن ، وينقاد كالضرير الضرير
— ان قاضي المتعبدين لعبدٌ وقضاة عور قضاة العور . . .

اضف الى هــذا موسيقى نظمية ضئيلة ، ونغماً موحداً لا يكاد يختلف طوال الثلاث عشرة قصيدة التي تتألف منها المجموعة ! ونحن ، امام ابياتٍ ، كالتي ذكرنا ، تلفظها القريحة في « ساعات خدرٍ » هي الى الموت اقرب منها الى الحياة ، لا يسعنا الى ان نأسف للحملة الشواء ، يحملها صاحب الافاعي في « حديث الشعر » ، على النظريات الشعرية الحديثة ، باسم الموهبة الحرة والالهام الانفعالي والبديهة الكسول ــ كما لو كانت ارادة الفرد عديمة التأثير حقاً على هذا الشيطان الكامن في صدر كلٍ منا ، ملكةً طائعة وقوةً صاغرة . . . وان ما يزيدنا على هذه الحملة اسفاً ، كون التصوير الموسيقي في الابيات الشعرية الموفقة ، قويّ جداً بل رائع ، على توحّده ، احياناً : مما يدل على موهبة خام ، لو رفدها الكسب وصقلها العمل ، اكثر مما رفد وصقل ، لأعطت الجمال مثقفاً سوياً لا معوجاً ولا مخلعاً .

* * *

ولننتقل الآن من اعتبارات فنية محضة ، الى أخرى يثيرها بعض الاهتمام بالآداب العامة وتدعو اليها « صراحة » ابي شبكة المتطرفة .

في اعتقادي ان « افاعي الفردوس » ، وان كانت تمت الى « أزاهير الشر » بصلات ، غير انها لا تحدث هذا الاضطراب النفساني العميق الذي يمكن التخوّف منه على المبتدئين والسبب ذلك اثنان :

الاول ما لمحت اليه من ان الابيات « الشعرية » يتخللها او يكتنفها ابيات « نثرية » تبدّد الوجد الفني تبديداً يكاد يكون تاماً . فهي اشبه شيء بتلك

« الكتل الفظيعة من احشاء الاسماك » ، تعترضك في غمرة البحران ، في اليم ، « بلون الورد الخفيف ، او الارجوان العميق » — بيد ان المواجد تتسرب الى عريك الاسمر من مذاب الشمس الفاتر او رحمة الاهاجير الموسوسة . والحال ان النثر لا يؤثر نفسياً ، الا بقدر ما يقترب من الشعر ، الذي امامه حضرة العقل تتقاص ، وبفعله توابع النثر تتفلت في عزيفها المنكر وولولتها المسكرة.

اما السبب الثاني فهو هذا العري الفاجر في التصوير:

— اسدوم هذا العصر لن تتحجّبي !...

والفن ، اذا تعرّى من الستر على يد شاعرٍ « خبثت عرائسه » ، تعرّى من سرّ الغواية فالشوق ، وربما في حالةٍ هي الى التقزّز اقرب منها الى المتعة المضطربة . فلو القى شاعرنا على سدومياته وشاحاً من الغموض الحي — « لا يكتم من (الحسن) الا بمقدار ولا يشفّ عنه الا بمقدار » — لكان خطره على الآداب شديداً . ولعله احسن صنعاً يوم فضل الآداب على الادب ، فاختار لنفسه هذه الطريقة « الطبيعية » التي اتبعها واوغل في اتباعها . وفقه الله الى ما وفق اليه هنري هينه حين قال:

« كنت على الشفاء ، بالخلق ، قادراً

ولقد شفيت يوم خلقت ...»

وبالجملة يمكننا القول ان جوّ « اغاني الفردوس » هو جوّ عربدةٍ فاجرة يزجّنا فيه شاعرٌ استوحى « المواخير » وراح ، نظير ملعون « الدينونة » : « يلي باتيابٍ واظفار...»

* * *

وصاحب « الاغاني » يشبه ملاعين الشعراء ، كبودلير ، من ناحية اخرى قد تبرّر نبوّة « الشهوة الحمراء »:

سينظر الندُ في اسي وينثره...

فان اشعةً دامية طاهرة تخترق هذا الجوّ المثقل بقتار الشهوات وفحيح البغايا: هي الذكريات الاولى البريئة ، هي خيالات الحب الاول العذري:

بقي لي الاسى من غلواي جنّتها ولم يزل في دمي من نسلها نسبُ !

هذا فجرٌ صغير في ليل من الدعر رحيب . والخلاص (الخلاص الذي يتزع اليه المبعد المسكين من حيث قد يشعر ومن حيث لا يدري) طريقه الشائك ، طريقه السحيق ، حنينٌ ينبع في دمعةٍ كهذه :

وداعاً ، عذارى الحب في خيم الهوى ، جمالك محظورٌ وعدنك موصدُ !

ــ عدنك موصد ! نعم ، ولكن الى حدّ . لان « اعياداً مقدسة » تنام في المدن الداخلي ، وأدتها الحمرُ الشهى قديماً ، ولم تمت ، فاذا ارهها النور تهيباً ، افاقت اجراسها وشاعت تباشيرها واقلقت الشاعر في ماخوره ، فصرخ :

ولشاطِ الهوى لعلّ عبيراً من غاد الشذاه والاكبادِ ،
او لعلّ الآثام تشرب منا ما تبقى من طهر ماء المهادِ !

هي صرخة المنقسم على نفسه الجريح ، يريد الافلات من مأساته فيحتال في « محق » احد عنصريها : ذاك الذي يشدّ به الى فوق . بيد انه لا يلبث ان يتحقق عجزه فيحاول « اقصاء » هذا العنصر فيقول :

مـا لنا وللأبد ان سره عميق ...

ولكن في غير طائل لحسن الحظ . فيجرب سلاحه في العنصر السفلي اذاك ، محاولاً « انكاره » في زهوة محزنة :

قيثارتي لم الطخها باقذار ، على طواني جا في بؤرة العار .

ولقد يجترح المسخ احياناً ليتخلص من مأساته فيقول ــ والعهدة على الراوي ــ انه يجني « الشهد » من « الجيف الجرداء » ابريزاً . والله اعلم !

اما هذه المأساة نفسها فاقرب مـا في « اقاعي الفردوس » الى قلوبنا . و« الخيالات النقية » كوىً منورة ننفذ منها ، مع الشاعر ، الى فوق : الى حيث ينتظرنا الله المجدلية فيحدب على ضعفنا وينهضنا من الوصول ويرحضنا « بتجاجات شمسه » الى الدم ...